تمهيد.

إنّ دراسة تاريخ الجزائر ومعه الفكر الجزائري لهو أمر في غاية الأهمية للأجيال الصاعدة للتعريف بتراث الأمة الجزائرية وانجازاتنا وتضحيات أبنائها عبر مراحل النضال المستمر رغبة في الحرية والسيادة والاستقلال، ورغم حملات التشكيك وتزييف للحقائق والقفز على الأحداث التاريخية من طرف أعداء الأمة والوطن ومن يساندهم إلا أن جلّ الدراسات التاريخية الموضوعية والرصينة تؤكد على أن الأمة الجزائرية أمة عريقة ضاربة في أعماق التاريخ لها ثقافتها الخاصة التي تميّزها والتي تسمو بها وتجعلها متفردة تشكّل وعيها وقوميتها وهويتها، من هنا نتساءل: **ماهي أبرز التحوّلات التي عرفتها الجزائر؟ وما هو أثرها على الفكر والثقافة ؟**

1. الثقافة: المفهوم والمعنى.

الثقافة: باللغة الانجليزية (the culture) هي كلمة مركبة متعددة المعاني يختلف معناها من حقل معرفي لآخر، ومن مجتمع لمجتمع آخر، وهذا راجع إلى أن لكل أمة ثقافتها الخاصة بها، وأن لكل عصر ثقافته التي تميّزه، وأن الثقافة هي قوة الفكر والعمل، وأنها معيار التقدم والتحضّر عند الكثيرين.- 1 -

إنّ محاولة ضبط معنى الثقافة يحيلنا إلى البحث في تعريفها اللغوي والاصطلاحي.

أ- الثقافة لغة: ورد في معجم لسان العرب في مادة ثقف أن: ثقف الشيء ثقفا وثقافة وثُقوفة: حذقه، ورجل ثقفُ وثَقَف: حَاذق، فَهمُ: فهمت الشيء. حذقته وثقفته إذا ظفرت به.[1]

فالثقافة هي الظفر بالشيء وإصابته وتحقيقه والتمكن منه، ويؤكد هذا المعنى أكثر قوله تعالى: " مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا " [2] ، وقوله تعالى أيضا: " وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ

[1]- ابن منظور: **لسان العرب ج1** ، دار المعارف القاهرة مصر، ص492.

[2]- القرآن الكريم: **سورة الأحزاب**، الآية 61.

ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ" [1]

ب- الثقافة اصطلاحاً: إنّ من أقدم التعريفات التي قُدّمت إلى الثقافة هو التعريف الذي قدّمه الأنثروبولوجي البريطاني إدوارد تايلور الذي يرى أن الثقافة: " هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات، وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع." [2]

من هذا التعريف للثقافة لإدوارد تايلور تبرز النزعة الاجتماعية لمفهوم الثقافة، فهي بالنسبة إليه كلية ذات بعد كوني، وشاملة تشمل جميع مناحي الحياة الانسانية في سياقاتها الاجتماعية.

أما فرانز بُوا الأنثروبولوجي الألماني فيرى أن الثقافة تشتمل على كل مظاهر العادات الاجتماعيية في مجتمع، ورد فعل الفرد في تأثره بعادات الجماعة التي يحيا فيها ونتاج الأنشطة البشرية كما تحددها هذه العادات. من هنا يتبين لنا أن بُوا أعطى تصورا تخصيصيا للثقافة، حيث يرى أن كل ثقافة هي واحدة ومخصوصة، لذلك كان انتباهه منجذبا وعفويا إلى ما يمثّل فُرادة ثقافة ما، فكل ثقافة تمثل بالنسبة إليه كلية متفردة.[3]

يرى مالك بن نبي في كتابه الشهير مشكلة الثقافة أن الثقافة هي الأرضية التي ينطلق منها كل وعي حضاري وكل رؤية نهضوية وأنها الأساس والأداة لتحقيق المجتمع المتحضّر، فهو يرى أن الثقافة أو بالأحرى فكرة الثقافة هي فكرة غربية وهي كلمة التصقت بالعبقرية الأروبية في عصر النهضة الذي شهد تطورا هائلاً وفي شتى المجالات في الفن وفي الأدب وفي الفكر.[4]

---

[1]- القرآن الكريم: **سورة البقرة**، الآية 191.

[2]- ادوارد تايلور: **الثقافة البدائية**، نقلا عن دنيس كوش: **مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية**، ترجمة: منير السعيداني، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط1، 2007، ص31.

[3]- المرجع السابق: دنيس كوش: **مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية**، ترجمة: منير السعيداني، ص39.

[4]- مالك بن نبي: **مشكلة الثقافة** ، دار الفكر دمشق سوريا، ط4، 1984، ص25.

من هنا يتبين أن مالك بن نبي يركّز على أهمية الثقافة ودورها النهضوي وبأنها تجسّد الخصوصية الثقافة وهي من تُحدد فلسفة تلك البلاد.

2. تاريخية الثقافة الجزائرية.

عرف الوطن الجزائري ومنذ القديم الإنسان، وحتى إنسان ما قبل التاريخ، حيث اكتشف العالم الألماني س. أرنبورغ c.aranbourg سنة 1948م أحجاراً منحوتة بالمكان المسمى عين خبش على بعد 06 كلم من مدينة العلمة بمقربة من مدينة سطيف والتي تعود إلى عصر ما قبل التاريخ و تؤكد على وجود الكائن البشري الذي لا يعرف الكتابة وهو انسان ماقبل التاريخ (يطلق هذا الاسم على ذلك الإنسان القديم الذي لم يكن يعرف الكتابة ليدوّن حوادثه ووقائعه.)

وحسب الكثير من المؤرخين فإن سكان الشمال الإفريقي بمختلف أنواعهم كالقبائل والشاوية والطوارق وغيرهم من الأمازيغ، وعُرفوا في كتب التاريخ بالبربر، وقد تعاقبت ثقافات وديانات متنوعة كان لها الأثر على هذه الشعوب الأمازيغية وبنسب متفاوتة، يقول المبارك الميلي: " البربر الذين عمروا هذا الوطن منذ دهور لا يعلم مبتدأها إلا العليم الخبير واستقروا به حتى عرف بهم ونسب إليهم– وقد سادتهم قديما دول احتلال وتعاقبت فيهم– وهي دولة الفينيقيين ودولة الرومان ودولة الوندال ودولة الروم." [1]

إنّ الدارس المتعمّق لتاريخ بلاد المغرب الأوسط (الجزائر) [2] يتبين له أن هذه الأرض عرفت شعوباً كثيرة أنتجت حضارات لازالت أثارها بادية إلى اليوم وصولاً إلى الفتح الإسلامي لبلاد الجزائر بداية من النصف الثاني من القرن السابع ميلادي أي 647 م، على يد رجالاً عظماء مخلصين للدين والأمة أمثال عقبة بن نافع، أبي دينار المهاجر، طارق بن زياد

[1]– مبارك بن محمد الميلي: **تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج1**، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص41.

[2]– ابن خلدون : **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج6، (طبعة بولاق)، ص 325.

وغيرهم، فظهرت دويلات عدة على أرض الجزائر كالدولة الرستّمية (776م- 909م)، الدولة الإدريسية (788م- 923م)، الدولة العبيدية الفاطيمية الشيعية (909م- 996م)، الدولة الموحدية(1121م- 1269م)، الدولة الزيانية (1235م- 1554م)... وغيرها، حيث ظهرت هناك حواضر للعلم والمعرفة ومدن للفكر والثقافة أمثال تلمسان، تيارت، بجاية، قسنطينة...الخ، إلا أنّ الحملات الاستيطانية الاسبانية المتكررة على هذه الدويلات، والصراع على الحكم والفساد المتفشي في دواليب السلطة فيها عجّل بزوالها فجاء الحكم العثماني للجزائر والذي امتد من (1518م- 1830م)، ومنه الغزو الفرنسي للجزائر والذي دام 132 سنة وصولاً إلى دولة الاستقلال التي أصبحنا فيها ننعم بالحرية والكرامة.

أما الثقافة السائدة فهي تتماشى والتحولات السياسية التي عرفتها الجزائر، كما أنها كانت تختلف أحيانا في المجتمع الواحد لعدة اعتبارات عقائدية وسياسية، ولكن ما هو ثابت أن مدن الجزائر ومنذ القديم شكّلت عواصم للعلم والثقافة، فقد كان الوعي الثقافي منتشرا بين السكان الجزائريين فقد أنتجت هذه الأرض العديد من العلماء والمفكرين الأفذاذ من بينهم يوبا الأول والثاني، لكيوس أبوليوس، القديس أوغسطين، الثعاليبي، الونشريسي، الأمير عبد القادر، السنوسي...وغيرهم.

3. خصائص الثقافة الجزائرية.

إنّ الحديث عن خصائص ومميزات الثقافة الجزائرية يحيلنا إلى الحديث عن الظروف والتغيّرات السياسية التي خضعت لها الجزائر كما سبق وأن ذكرنا، فقد كانت الثقافة الجزائرية تتأثر بالمعطى الداخلي وبالوافد الخارجي فقد عرفت الجزائر أصنافاً من الثقافات إن صح التعبير، ولكن ما هو ثابت هو أن الثقافة الجزائرية تشكلت بكل أبعادها المختلفة بفضل عاملين بارزين، الأول هو اعتناق السكان الجزائريين الدين الإسلامي، والثاني نجاح الثورة التحريرية، وبهذا تبلورت معالم الهوية الوطنية الجزائرية. حيث يمكن تلخيص سمات الثقافة الجزائرية فيما يلي:

1- إنها ثقافة تحررية تؤمن بالحرية والسيادة والاستقلال تؤمن بالثورة على الظلم والطغيان ولنا في الثورة التحريرية عبرة ودليل.

2- شكّل الدين السمّة البارزة، وهو المؤثر في كل التحولات والأحداث منه يتأسس كل مفهوم ثقافي.

3- إنها ثقافة تنطلق من المعالم الوطنية دائما كانت الأرض أو الوطن هو الأساس الذي ينطلق منه كل وعي ثقافي.

4- إنها ثقافة تتمسك بمفاهيم الوحدة الوطنية من خلال الاتحاد والتضامن والتعاون ونبذ الفرقة و الصراع.

5- ثقافة أصيلة متأصلة تنطلق من الفهم الصحيح لخصوصيتها الثقافية كما أنها تحاكي مفاهيم الحداثة والتقدّم.

6- الثقافة الجزائرية اليوم ثقافة مؤسسة على المعالم الوطنية ثقافة اسلامية عربية أمازيغية جزائرية.

الخاتمة.

نستنتج في الأخير أن التحولات السياسية التي عرفتها الجزائر كان لها الأثر البارز على رسم معالم الثقافة، حيث تغيّرت وتطورت حسب المعطيات السياسية و الأحداث التاريخية، ولكن رغم كل هذا استقر الوعي الجزائري في الأخير على ثقافة تتأسس على المحددات الوطنية أساسها الأول بيان الفاتح من نوفمبر 1954م الذي يعتبر ملهم الفكر والثقافة في بلدنا العزيز الجزائر.